ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Baha El-Din Taresh Dawood

General Directorate of Education Wasit

Email: Bahaaaldeen588@gmail.com

Keywords:

Contradictory poetry, Christian poets, Louis Cheikho, the Jesuits.

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 24. Mar.2026

Revised 22. Sep.2026

Accepted 23. Sep.2026

Published 25. Nov.2026

Contradictions in the book (Christian Poets Before Islam) by Louis Cheikho

A B S T R A C T

The life of pre-Islamic Arab society is considered the primary and fundamental reason for the emergence of satirical Contradictory poetry. It determined its main purposes. Bedouin life and its accompanying pre-Islamic morals, which the Arabs of that time cherished, were the primary source of social traditions, customs, and practices.

As for the choice of the book "Poets of Christianity Before Islam" by Louis Cheikho, the Jesuit, despite the numerous criticisms leveled against this book and its author, it is nothing more than a study of a literary work.

The life of the Arab in that era was a constant cycle of attack and defeat. The pre-Islamic social life, with its customs, traditions, and values of fairness, respect, and proper conduct, had an undeniable influence on the emergence of satirical poetry when these values were violated.

This is what pre-Islamic poetry represented. When discussing this art and its early origins, we must not forget the great efforts made by Dr. Ahmed Al-Shaib in his great book (The History of Contradictions in Arabic Poetry) and the efforts of Dr. Abdul Rahman Muhammad Al-Wasaifi in his book (Contradictions in Pre-Islamic Poetry), as they have a great impact on tracing the origins of this art.

© 2026 EDUJ, College of Education for Humans Sciences, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss2.5163

النقائض في كتاب (شعراء النصرانية قبل الإسلام) للويس شيخو

م. د. بهاء الدين طارش داود الزبيدي

المديرية العامة لتربية واسط

الملخص:

عُدّت حياة المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام السبب الأصيل والرئيس لنشأة شعر النقائض؛ فهي من حدّدت أغراضه الرئيسة، فالحياة البدوية وما صاحبها من أخلاق جاهلية حرص عليها العربي آنذاك كانت المعين الأول للتقاليد الاجتماعية وأعرافها وعاداتها.

وأمّا اختيار كتاب (شعراء النصرانية قبل الإسلام) للويس شيخو اليسوعي، وعلى كثرة المآخذ على هذا الكتاب وصاحبه، فإنّه لا يزيد على كونه بحثاً في كتاب أدبي.

لقد كانت حياة العربي في ذلك العصر بين أخذ ورد بين أن يغزو أو يُغزى. لقد كان للحياة الاجتماعية الجاهلية وأعرافها وعاداتها وتقاليدها من إنصاف الآخرين واحترامهم وصحة سلوكهم أثر لا يخفى في ظهور النقائض إذا ما برز خلاف ذلك وهذا ما مثّلته قصيدة الشعر قبل الإسلام، وعند الحديث عن هذا الفن ونشأته الأولى فلا ننسى الجهود العظيمة التي قام بها الدكتور أحمد الشايب في كتابه الجليل (تاريخ النقائض في الشعر العربي) وجهود الدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي في كتابه (النقائض في الشعر الجاهلي) لما لهما من أثر عظيم في تتبع نشأة هذا الفن.

الكلمات المفتاحية: شعر النقائض، شعراء النصرانية، لويس شيخو، اليسوعيون.

المقدمة:

اتّكأت النقائض على مقوّمات عِدّة كالأنساب والعناية بها ومعرفتها، وأثرها البارز في العصبيّات القبلية، والمفاخر بالأيام وما شكلته من نمط سائد في الحياة الجاهلية وما تضمنته من أشعار ونقائض فهي –الأيام أو الحروب– ديدنهم الذي لا يحيدون عنه، يقول دريد بن الصمة (من الطويل) (القشيري، د. ت، صفحة ٩٧):

"يُغـــارُ عَلَينـــا واتِـــرينَ فَيُشـــتَفى بِنـــا إِن أُصِـــبنا أَو نُغيـــرُ عَلـــى وِتـــرِ

بِـــذاكَ قَسَـــمنا الـــدَهرَ شَـــطرَينِ قِســـمَةً فَمـــا يَنقَضـــي إِلّا وَنَحـــنُ عَلـــى شَـــطرِ"

فحياة العربي في ذلك العصر بين أخذ ورد بين أن يغزو أو يُغزى. لقد كان للحياة الاجتماعية الجاهلية وأعرافها وعاداتها وتقاليدها من إنصاف الآخرين واحترامهم وصحة سلوكهم أثر لا يخفى في ظهور النقائض إذا ما برز خلاف ذلك؛ إذ مثلت قصيدة الشعر قبل الإسلام "مرآة للقيم الاجتماعية التي شكلت ثقافة ذلك المجتمع، وعالجتها بواسطة مواءمتها للأغراض الشعرية الرئيسة" (حاجم، ٢٠٢٣، صفحة ١٦١)، وعند الحديث عن هذا الفن ونشأته الأولى فلا ننسى الجهود العظيمة التي قام بها الدكتور أحمد الشايب في كتابه الجليل (تاريخ النقائض في الشعر العربي) وجهود الدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي في كتابه (النقائض في الشعر الجاهلي) لما لهما من أثر عظيم في تتبع نشأة هذا الفن. ومن ثم لا بدَّ بالتعريف بالكتاب المختار وصاحبه.

من هو لويس شيخو؟

هو الأب لويس شيخو اليسوعي المنتمي إلى مجموعة أُطلق عليها (الآباء اليسوعيين) دار حول شخصيته كثير من الجدل، واختلف في شخصيته وعلميّته الكثير بين مادح وقادح، ولأنه صاحب الكتاب موضوع البحث صار لزاماً التعريف به. فقد جاء في كتاب الأعلام للزركلي : "لويس شيخو اليسوعي: منشئ مجلة (المشرق) في بيروت، وأحد المؤلّفين المكُثرين، كان اسمه قبل الرهبنة (رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو) ... تنقّل في بلاد أوربا والشرق، فاطّلع على ما في الخزائن من كتب العرب، ونسخ واستنسخ كثيراً منها، حمله إلى الخزانة اليسوعية في بيروت ... أنشأ مجلة المشرق سنة ١٨٩٨م، فاستمرَّ يكتب أكثر مقالاتها مدة خمس وعشرين سنة، وكان همّه في كلّ ما كتب، أو في معظمه، خدمة طائفته" (الزركلي، ٢٠٠٢، صفحة ٥: ٢٤٦)، ولو تفحصنا النظر بالعبارة الأخيرة من ترجمته، وجدنا فيها قدحاً؛ فجملة (خدمة لطائفته) إشهار علني بعدم الأمانة العلميّة، وربما يكون القدح بمحاولة الكاتب (لويس شيخو) توجيه سِير من يكتب عنهم ونسبتهم للديانة النصرانية، غير أنَّ من الجلي القول وكما سبق: إنّنا نبحث في الجانب الأدبي فحسب لا بسير من ذُكر من الشعراء.

وأمّا **(الآباء اليسوعيون)** الذي ينتمي لهم لويس شيخو فلم يسلموا هم كذلك من نقد وتشكيك في كتاباتهم ومدوناتهم، وتناولهم بعض الكتاب في أحاديثهم، ففي معرض حديث أحمد محمد شاكر وتحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وفي ترجمة (أبي العتاهية)، فإنّه يقول: "وديوانه معروف، طبعه الآباء اليسوعيون بمطبعتهم في بيروت سنة ١٨٨٦، وهم قوم لا يوثق بنقلهم؛ لتلاعبهم وتعصبهم وتحريفهم، ولكن هذا الذي وُجد بأيدي الناس" (ابن قتيبة، ٢٠٠٣، صفحة ٢: ٧٧٩ الهامش:١)، وكلام أحمد محمد شاكر لا لبس فيه ولا خفاء، فهو يطعن بهم وبأمانتهم، بل بتحريف بعض النصوص كي تتماشى مع مرادهم.

ما النقائض؟

جاء في لسان العرب "النقضُ: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ... وناقضه في الشيء مناقضةً ونقاضاً: خالفه ... والمناقضة في القول: أن يتكلّم بما يتناقض معناه، والمناقضة في الشعر: ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول، والنقيضة الاسم يجمع على النقائض، ولذلك قالوا نقائض جرير والفرزدق" (ابن منظور، د. ت، الصفحات ٧: ٢٤٢– ٢٤٣ مادة (نقض))، وعلى هذا القول ملاحظتان جديرتان بالإشارة: أمّا الأولى فتأتي في صلب فن النقائض وهي أن القول اللاحق يفنّد ويهدم القول الأول، بمعنى أن تكون القصيدة اللاحقة على تضاد تام مع القصيدة الأولى، وأمّا الثانية: فإنَّ تسمية النقيضة تطلق على القصيدة الثانية لا الأولى.

وأمّا تعريف النقيضة عند الأدباء ومؤرخيهم فهي: "قصيدة يردُّ بها شاعر على قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه، يقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو" (فروخ، ١٩٨١، صفحة ٣٦١)، ومثل هذا ذهب الدكتور شاكر الفحّام بقوله: "المناقضة في الشعر: أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول بأن يقول شاعر قصيدة فينقض عليه شاعر آخر حتى يجيء بغير ما قال" (الفحام، ١٩٧٧، صفحة ٢٧٧)، ولعلّ في قول الدكتور عمر فروخ إشارة مهمة إلى أغراض النقائض وإن كانت غير مطلقة فقد حصرها في غرضَي الفخر والهجاء، ويمكن القول: إنَّ هذا الرأي ساد قديماً، فأبو عبيدة في حديثه عن النقائض ابتدأ قوله: "كان التهاجي بين جرير والفرزدق ... الخ" (أبو عبيدة، ١٩٩٨، صفحة ٧)، وزاد الدكتور الفحّام بالقول: "كان الفخر والهجاء أبرز غرضين استهويا الفرزدق واستأثرا بنفسه، قال فيهما فأكثر" (الفحام، ١٩٧٧، صفحة ٢٧٦)، وعلى هذا يمكن القول: إنَّ فن النقائض ظل يدور بين هذين الغرضين إلى حد كبير.

ما أهميّة النقائض؟

وأما أهمية هذا الفن فتكمن في كونه "كشف عن فن جديد من فنون الشعر العربي له خطره، وله شعراؤه، وله آثاره في تهذيب النفوس وهو معونة قيّمة في تاريخ الأدب العربي بعامة والقديم منه بوجه خاص" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة و)، ويرى الأستاذ الشايب أنَّ المناقضة "ظاهرة نفسية طبيعية نشأت حتماً عن ملكة الشعر وموهبته التي تزكو في نفوس الشاعرَين فتتجاوب أصداؤها على ألسنتهم أوزاناً وقوافي وأخيلة ومعاني وتنتقل هذه النغمة بطريق (العدوى) من نفس الأول إلى نفَس الثاني، فإذا بهذا صدى ذلك، وإذا بالثاني يلتزم موسيقا الأول ويرد عليه معانيه بنفس الألحان والأوزان، فينقض عليه قوله، ويصير نظيره وتصبح كل قصيدة نقيضة للأخرى، أي مخالفة لها" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة ٢)، وكأن إشارته تعني أنَّ كلا القصيدتين تسمى نقيضة، وهذا خلاف المألوف حيث أنَّ الشائع أن تسمّى القصيدة الثانية فقط بهذا الاسم، ولو عدنا إلى أشهر كتاب في هذا الفن، ونقصد به كتاب أبي عبيدة (النقائض) وجدناه يقول على بعض القصائد: "ولم يسمع لها بنقيضة" (أبو عبيدة، ١٩٩٨، صفحة ٢٧، ٢٨، ٣٣)، وهو بهذا يؤكّد القول بأنَّ النقيضة هي القصيدة الثانية لا الأولى.

وأمّا من حيث المعاني: فالأصل العام فيها "المقابلة والاختلاف؛ لأنَّ الشاعر الثاني همّه أن يُفسد على الأول معانيه فيردها عليه إن كانت هجاء ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه، وإن كانت فخراً كذّبه فيها أو فسّرها لصالحه هو، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة ٤)، والنقائض محورها جانب المعنى أكثر شيء من غيره، ومعينه المآثر والأنساب والأيام.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ حدَّ النقيضة في اللغة يتمثّل في نقض معاني القصيدة الأولى، وأمّا عند أهل الأدب فلهم فيها شرطان "أولهما: أن تتفق القصيدتان بحراً ورويّاً، والثاني: أن يردَّ اللاحق على السابق معانيه وينقضها" (الفحام، ١٩٧٧، صفحة ٢٧٨) فإن لم يتقيّد الشاعر الثاني بالوزن، أي البحر، والروي، قيل فيه: إنّه ردَّ عليه أو أجابه أو عارضه أو غير ذلك، ومثال ذلك:

المفاخرة في الشعر:

واسمها يدلُّ على أنّها "من الفخر، وهو التمدّح بالخصال وادّعاء العظم والكبر، والشرف وتفاخر القوم: فخر بعضهم على بعض، والأصل في هذا الفن أن يفخر شاعر أو ناثر بذكر مآثره ومآثر قومه، فيردَّ عليه آخر بمثل ذلك دون التزام البحر والقافية أو هجاء أو تسابّ، أو الالتجاء إلى حكم، وإن كان ذلك يقوم في المحافل كثيراً" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة ٨)، ولو أنعمنا النظر في هذا القول لكان من السهولة بمكان استنتاج أوجه الخلاف بين المفاخرة والنقائض؛ حيث لا يُشترط في المفاخرة التزام الروي والبحر وردّ المعنى وقلبه على صاحبه كما في النقيضة فضلاً عن خلوّها من الهجاء القبيح، كما أنّها لا تشترط وجود حكماً كما في المعارضة وإن كان هذا الشرط الأخير ليس موجوداً غالباً.

والمنافرة:

وهي المحاكمة والمفاخرة بين شاعرين بحضور جمع من الناس حول موضوع معيّن مع وجود حكم يقضي لأحدهما دون الآخر، فهي: "أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثمَّ يحكّما بينهما رجلاً كفعل علقمة ابن علاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري" (ابن منظور، د. ت، صفحة: نفر). ودلالة النص واضحة حيث اشتراط وجود حكم بين المتنافرين.

و**المراجزة:** وهي المناقضة رجزاً على شرط توافر الشروط الموضوعية والمعنوية والموسيقية الموجودة في المناقضة.

ويغلب على **المناقضة** كثرة الهجاء الصريح وتقابل المعاني والفخر بالأحساب والأنساب والوعد والوعيد، فإن لم يكن هناك معارضة للمعنى، وإن التزم الشاعران بالوزن والقافية، فلا يمكن أن تُعد من المناقضة في شيء، وقد تسمّى **المعارضة** في الشعر: وهي أن "يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية فيأتي شاعر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها، وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير ... دون أن يعرض لهجائه أو سبّه ... ومناط المعارضة هو الجانب الفني وحسن الأداء وليس فيها هذا التسابّ القبيح، ولا يلزم أن يكون المتعارضان متعاصرَين بخلاف المناقضة في ذلك، وإن اتّفقا في وحدة البحر والقافية ثم الموضوع غالباً" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة ٧)، ومثله قول امرؤ القيس (من الطويل) (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٣):

"خَليلَـــيَّ مُـــرّا بـــي عَلـــى أُمِّ جُنـــدَبِ نُقَـــضِّ لُبانـــاتِ الفُـــؤادِ المُعَـــذَّبِ"

وقول علقمة بن عبدة (من الطويل) (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٧):

"ذَهَبتَ مِنَ الهِجرانِ في غَيرِ مَذهَبٍ وَلَم يَكُ حَقّاً كُلُّ هَذا التَجَنُّبُ"

وكان الشاعران في اختبار أيّهما أشعر، فاحتكما إلى أم جندب وهي زوج امرئ القيس، ففضّلت علقمة على امرئ القيس، فقال لها: "بم فضلته عليّ؟ فقالت: فرس ابن عبدة أجود من فرسك. فقال: وبماذا؟ قالت: سمعتك زجرت وضربت وحركت وهو قولك:

"فَلِلساقِ أُلهوبٌ وَلِلسَوطِ دُرَّةٌ وَلِلزَجرِ مِنهُ وَقعُ أَهوَجَ مُتعَبِ"

وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه، وهو يقول:

"وأقبل يهوي، ثانياً من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلِّبِ"

فغضب امرؤ القيس على أم جندب وطلقها، وقيل: إنَّ علقمة خلف عليها بعد ذلك فسميَّ علقمة الفحل" (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٩)، إنَّ قصيدتَي الشاعرين، وإن كانتا على روي واحد وبحر واحد هو بحر الطويل ويكاد يكون موضوعهما واحد، إلّا أنّهما ليستا في حكم النقائض، فهما لم يكونا سوى معارضة بين شاعرين فحلين حكمت فيهما (أم جندب) لأحدهما على الآخر، فقدّمت بذلك علقمة على امرئ القيس.

إنَّ **غاية المناقضة** من حيث المعنى: قيام الشاعر الثاني لمحاولة إفساد ما قرّره الشاعر الأول، حيث يذكر ما يكذّب دعواه ويخالفه فيما يدّعيه، وبطرق عِدّة، ومنها:

المقابلة: فيذكر الثاني مفاخر لنفسه وقومه ومثالب قُبال ما ادّعى الأول لنفسه وقومه من مفاخر.

القلب: وهو خاص بالهجاء، إذ يقلب الشاعر الثاني المعنى على الشاعر الأول ويلصق به ما ادّعاه على الثاني.

التنازع: ويخص الفخر، إذ يتنازع الطرفان على إثبات المفاخر نفسها له ولقومه.

التوجيه: ويخصَّ حادثة ما، فيوجهها كلُّ شاعر على وفق ما يراه وموقفه منها.

على أنَّ كلَّ ما سبق ذكره لا يخلو من شماتة ووعيد. وممّا لا يخفى على متخصص أنَّ الحروب أو الأيّام، كما أُطلق عليها قبل الإسلام، معين الشعر الأساس؛ ولذا طغى غرض الحماسة على باقي الأغراض لارتباطه بها، واستدعى هذا الغرض (الحماسة) الفخر والهجاء؛ فكان لهما القدح المعلّى في (الشعر السياسي القديم)، إن صحَّ أن نطلق عليه هذا الاسم، أو شعر الحرب، فكان "الفخر والهجاء في مقدمة الفنون التي قامت عليها المناقضة، أو هما فنّاها الأساسيّان" (الشايب، ١٩٥٤، صفحة ٤٠). ولمّا كان الفخر بالقبيلة أو بالفرد ذاته له أثر عظيم في حياة البادية؛ فقد شاع في شعر الحرب أو الأيام ومن ثمَّ أصبح موردًا لفن النقائض العامة. وأمّا الهجاء فقد نشأ مع الفخر، وإن كان الأخير مدحاً للمناقب، فإنَّ الهجاء ذكر للمثالب والرذائل، وبما أنَّ النقائض في عموم معناها الرد والإنكار فجناحاها ولا ريب الفخر والهجاء، على ألّا نغفل حقيقةُ لها بعد أدبي كبير لا يسع شرحها الآن وهو: تسمية النقائض في العصر الأموي فنّاً لا غرضاً.

نشأة النقائض:

كانت النشأة والطور الأول لفن النقائض في عصر ما قبل الإسلام غير مكتملة الأركان والأصول؛ فقد يقترن نقض المعاني بعدم الالتزام بالقافية أو البحر فعند ذاك لا يزيد أن يكون جدلاً لا نقيضة، غير أنَّ كثرة الأيام وتعدد الحروب أسهمت بتكامل عناصرها، فمثّلت تحدياً للمعنى والموضوع والموسيقى. ولكلّ هذا وصفت النقائض في الجاهلية بالظاهرة لا فن مكتمل الأصول كما في العصر الأموي، غير أنَّ من أهم ما انمازت به الأولى صدق الصورة للمجتمع الجاهلي من حيث الأسلوب والموضوع والغاية والمعنى.

وقد ذهب الدكتور الوصيفي إلى القول: إنَّ شعر النقائض "أقرب إلى الحياة الجاهلية من أي عصر آخر؛ وذلك لكثرة الحروب والمعارك والمنافرات التي ينشأ عنها عادة شعر النقائض الحقيقي لأنّه يعبّر عن حالة عداء حقيقي بين خصمين" (الوصيفي، ٢٠٠٣، صفحة ٦)، فهو –أي فن النقائض– صورة حقيقية لما عاشه الفرد في مجتمع ما قبل الإسلام لا موضوعاً أدبياً يتبارى به الشعراء لإثبات قدراتهم الأدبية كما في العصور التي تلت. ويمضي الدكتور (الوصيفي) بشرح أهمية هذا الفن وخطورته، فهو يرى أنَّ الشاعر العربي آنذاك "يدرك خطورة النزال القولي، لذا كان الشاعر الأول يبذل قصارى جهده في تصوير ما يقول محاولاً إثباته بحجج وبراهين وأدلّة كي يقنع الغير بها، وكان الشاعر الآخر عندما يردّ عليه يبذل جهداً مضاعفاً؛ لأنَّ الأول فرض عليه أرض المعركة وطبيعتها –الموضوع والإيقاع– ومع ذلك يتحتم عليه تفنيد ما قاله الأول والرد عليه وإبطاله" (الوصيفي، ٢٠٠٣، صفحة ١٠)، ولا بدَّ لنا من القول: إنَّ المناقضة تظهر قبل كلّ معركة أو بعدها تهديداً أو وعيداً أو فخراً. وقبل الخوض في أبرز النقائض الواردة في كتاب شعراء النصرانية للويس شيخو لا يمكن إغفال شروط النقيضة الأساس ونقصد بها: قلب المعنى والبحر والقافية المتوافقان في القصيدة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ فقدان أيّ شرط من هذه الشروط تُخرجها من عنوان النقيضة، وعلى سبيل المثال: لمّا فتك جسّاس بكليب في الحادثة المشهورة، عاد إلى الديار وأخبر والده مرّة بن ذهل بما جرى فأنكر عليه والده ذلك فقال جساس (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٤٧)

"تأهَّـــب مِثـــلَ أُهبَـــةِ ذِي كِفـــاح ... فَـــإِنَّ الأَمـــرَ جَـــلَّ عَـــنِ التَّلاحـــي
وَإِنِّـــي قَـــد جَنَيـــتُ عَلَيـــكَ حَربـــاً ... تُغِـــصُّ الشَّيـــخَ بِالمـــاءِ القَـــراحِ
مُذَكَّـــرَةٌ مَتَـــى مَـــا تَصـــحُ مِنـــها ... تَشُـــبُّ لَهـــا بِـــأُخرَى غَيـــرَ صـــاحِ

تُسَعَّـــرُ نارُهـــا وَهَجـــاً وَجـــاءَت ... غِـــذا خَمَـــدَت كَنيـــرانِ الفِصـــاحِ
وَمـــا تَنفَـــكُّ نائِحَـــةٌ تُعَـــزِّي ... بِمـــا نَدَبَـــت وَتُعلِـــنُ بِالنُّـــواحِ

تَعَـــدَّت تَغلِـــبٌ ظُلـــماً عَلَينـــا ... بِـــلا جُـــرمٍ يُعَـــدُّ وَلا جُنـــاحِ
ذَرينِـــي قَـــد طَرِبـــتُ وَحـــانَ مِنِّـــي ... طِـــرادُ الخَيـــلِ عارِضَـــةَ الرِّمـــاحِ
وَمـــا لِـــي هِمَّـــةٌ أَرجُـــو أَخاهـــا ... سِـــوَى الخَطِّـــيِّ وَالفَـــرَسِ الوَقـــاحِ"

فلمّا سمع أبوه هذه الأبيات ردَّ عليه بالقول (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٤٨)

"فـإن تـكُ قـد جنيـت علـى حـربـا ... تـغـص الشيـخ بالمـاء الـقـراح
جمعـت بهـا يديـك علـى كـلـيب ... فـلا وكـلٌ ولا ربّ الـسـلاح
ولكنـي إلـى الـعـلات أجـري ... إلـى الـمـوت المحيـط مـع الـصبـاح
وإنـي حـين تشتجـر العوالـي ... أعيـد الرمـح فـي إثـر الجـراح
شديـد البـأس ليـس بـذي عـياء ... ولكنـي أبـوءُ إلـى الفـلاح
فإنـي قـد طربـت وهـاج شوقـي ... طِـرادُ الـخيـل عـارضـة الرمـاح
وأجمـل مـن حيـاة الـذل مـوت ... وبعـض العـار لا يمحـوه مَـاح"

إنَّ قراءة سريعة للنصوص تشي بأنَّ جساسًا طلب من أبيه الحماية والمؤازرة وعدم التخلي عنه مهما كانت الأسباب وعليه ألّا يلوم ويعتب، فالمعركة قادمة لا محالة، وأخذ يبرر قتله كليبًا، بإنَّ الأخير ظلم وطغى وتجبّر، وما قتله إلّا جزاء طبيعي لأفعاله. وردَّ مرة على ابنه بإنَّ أباه ليس بالجبان أو الرعديد الذي يخشى الحرب ويخافها أو يهرب منها، وما عليهم إلّا أن يستعدوا لها ويعيشوا في عزة وكرامة ويتجنبوا الذل.

وعلى الرغم من أنَّ القصيدتين تشتركان في بحر واحد هو (الوافر) وقافية واحدة، إلّا إنّه لا يمكن لنا أن نعدّها من النقائض؛ لخرقهما شرطًا مهمًا من شروط النقيضة وهو نقض المعاني من قبل الشاعر الثاني، ومعاني قصيدة مرة بن ذهل والد جساس لا تنقض معاني قصيدة ولده، بل راح يؤكدها ويسير في طريق سلكه قبله جساس، ولو أنّه نقض قول ولده لانفضَّ الناس من حولهما وتركوهما. وعلى هذا فلا يمكن أن تُعد هاتان القصيدتان من النقائض؛ كون المعنيان متسايران معًا.

النقائض وتحليلها:

نقيضة يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل:

عن الأصمعي أنّه قال: "اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ وقدم أميّة بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر، فقالت أم كلاب امرأة أمية بن الأسكر: من هذان الرجلان؟ فقال: هذا يزيد بن عبد المدان بن الديّان وهذا عامر بن الطفيل، فقالت: أعرف بني الديّان ولا أعرف عامرًا، فقال: هل سمعت بملاعب الأسنّة؟ فقالت: نعم، قال: فهذا ابن أخيه... فزوّج أميةُ يزيدَ بن عبد المدان ابنته فقال يزيد في ذلك: (من الكامل) (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٨١)

"يـا للرجـال لطـارق الأحـزان ... ولعـامر بـن طفيـل الوسـنان
كانـت إتـاوة قومـه لمحـرّقٍ ... زمنـاً وصـارت بعـد للنعمـان
عـدَّ الفـوارس مـن هـوازن كلهـا ... فخـراً علـيَّ وجئـت بالـديان
فـإذا لـي الشـرف المتـين بوالـد ... ضـخم الدسـيعة زاننـي ونمـاني
يـا عـام إنـك فـارس ذو منعـة ... غـض الشـباب أخـو نـدى وقيـان
واعلـم بأنـك يـا ابـن فـارس قـرزل ... دون الـذي تسـعى لـه وتـداني
ليسـت فـوارس عـامر بمقـرة ... لـك بالفضـيلة فـي بنـي غـيلان
فـإذا لقيـت بنـي الحمـاس ومالـك ... وبنـي الضـباب وحـي آل قنـان
فاسـأل عـن الرجـل المنـوه باسـمه ... والـدافع الأعـداء عـن نجـران
يعطـى المقـادة فـي فـوارس قومـه ... كرمـاً لعمـرك والكـريم يمـان"

فأجابه عامر بن الطفيل (من الكامل) (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٨٢):

"عجبـــاً لواصـــف طـــارق الأحـــزان ولمـــا تجـــيء بـــه بنـــو الـــديان
فخـــروا عَلـــيَّ بحبـــوة لمحـــرق وأتـــاوة ســـبقت إلـــى النعمـــان
مـــا أنـــت وابـــن محـــرق وقبيلـــه وأتـــاوة اللخمـــي فـــي غـــيلان
فاقصـــد بفخـــرك قصـــد قومـــك نصـــرهم ودع القبائـــل مـــن بنـــي قحطـــان
إن كـــان ســـالفة الأتـــاوة فـــيكم أو لا ففخـــرك فخـــر كـــل يمـــان
وافخـــر بـــرهط بنـــي الحمـــاس ومالـــك وبنـــي الضـــباب ورعبـــل وقيـــان
فأنـــا المعظـــم وابـــن فـــارس قـــرزل وأبـــو بـــراء زاننـــي ونمـــاني
وأبـــو جـــري ذو الفعـــال ومالـــك منعـــاً الـــذمار صـــباح كـــل طعـــان
وإذا تعاظمـــت الأمـــور هـــوازن كنـــت المنـــوه باســـمه والبـــاني"

ومن البدهي القول: إنَّ النقيضة سالفة الذكر قد استوفت شروطها جميعاً؛ فكلاهما من (بحر الكامل) وعلى ذات الروي والقافية وأمّا المعاني فجاءت متقابلة فصوّر كلٌ شاعر منهما رهط الآخر، فإن كان يزيد قد ذكر خضوع هوازن للملوك ودفعهم للأتاوة ومن ثمَّ الفخر بحسبه ونسبه، فإنَّ عامرًا ردَّ بالفخر بقومه وذكر مناقبهم ومفاخرهم لا كما صوّرهم يزيد بن عبد المدان. إنَّ مما تتماز هذه النقيضة به التنازع في الفخر؛ لإثبات المفاخر من قبل الشاعر لنفسه ولقومه.

نقيضة كليب بن ربيعة والبرّاق بن روحان:

لمّا نشبت الحرب بين بني ربيعة قوم البرّاق بن روحان وقبائل قضاعة وطيء، "اجتمع إلى البرّاق كليب بن ربيعة وإخوته يستنجدونه، وكان البرّاق معتزلاً عنهم بقومه؛ لرغبة لكيز (بن أسد) عنه بابنته ليلى (العفيفة). فقالوا له: قد طمَّ الخطب ولا قرار لنا عليه، وأنشده كليب (من الطويل):

"إليـــكَ أتينـــا مســـتجيرين للنصـــرِ فشـــمِّر وبـــادر للقتـــال أبـــا النصـــرِ
ومـــا النـــاسُ إلا تـــابعون لواحـــدٍ إذا كـــان فيـــه آلـــةُ المجـــد والفخـــرِ
فنـــادِ تُجبـــك الصـــدي مـــن آل وائـــلٍ ولـــيس لكـــم يـــا آل وائـــل مـــن عـــذرِ"

فأجابه البرّاق متهكمًا: (من الطويل)

"وَهَـــل أَنـــا إلّا واحـــد مـــن رَبيعَـــةٍ أَعِـــزُّ إذا عَـــزّوا وَفَخـــرُهُم فَخـــري
سَـــأَمنَحُكُم مِنّـــي الَّـــذي تَعرِفونَـــهُ أُشَـــمِّرُ عَـــن ســـاقي وَأَعلـــو عَلـــى مُهـــري
وَأَدعـــو بَنـــي عَمّـــي جَميعـــاً وَإِخـــوَتي إِلـــى مَـــوطِنِ الهَيجـــاءِ أَو مَرتَـــعِ الكَـــرّ"

ثمَّ ردّهم خائبين ولم يوافقهم على القيام فيهم" (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٤١).

إنَّ أوّل ما يبدر إلى الذهن أنَّ هاتين القطعتين لا تعدوان أن يكونا قد جريتا على طريق واحد، هو طريق الاستنجاد والإجابة ولا يوحي ردُّ البرّاق على خيبة أمل لدى كليب كما وصفها صاحب الكتاب في ذيل تعليقه على هذه القصة، غير أنَّ نظرة دقيقة وفاحصة للقطعتين تشي بغير ذلك، فهل تدور المعاني فيهما حول ما يمكن أن تسمّى نقيضة؟

والجواب: نعم؛ فالقطعتان على بحر واحد هو الطويل ورويّهما واحد، وأمّا المعاني فجاءت متقابلة غير متوافقة، فكليب يطلب من البرّاق أن يكون قائد ربيعة في هذه المعركة وصاحب الأمر فيها (وما الناس إلّا تابعون لواحد) مع ذكر صفات هذا القائد فهو (آلة المجد والفخر)، ولو أنّه نادى لأجابته بنو وائل جميعها وهم من ربيعة، ولا عذر لمن يتخلّف عنه. إلّا أنَّ البرّاق ردّ طلبه ردّاً غير مباشر؛ فهو لا يرى نفسه إلّا فرداً من ربيعة لا قائداً (وهل أنا إلّا من ربيعة)، بل أنَّ مجده وفخره من فخرهم ومجدهم، وإن كان الردُّ على سبيل التهكّم، وهو مستعد للقتال بين صفوفهم (أشمّر عن ساقي وأعلو على مهري)، كما أنّه سيطلب من بني عمّه وإخوته المشاركة في المعركة. وعلى هذا يكون البرّاق ردَّ على طلب كليب، كما أشار صاحب الكتاب (بالتهكّم)؛ فلو أنّهم يرون فيه قائداً وعرفوا قدره لما آثر لكيز بن أسد أن يخلف وعده في تزويجه من ابنته ليلى العفيفة؛ ولذا فهو مستعد أن يكون فرداً مع المجموعة لا رئيساً لهم كما عرض عليه كليب.

وقد تكون هاتان المقطوعتان تسيران خلاف ما عُرف عن النقائض؛ فالمقابلة في النقيضة تقتضي أن يذكر الشاعر الثاني مفاخر لنفسه وقومه خلاف ما يذكره الأوّل لنفسه، غير أنَّ ممّا يلحظ هنا أنَّ كليب وهو الشاعر الأول ذكر مفاخر البرّاق وصفاته القيادية وأنَّ البرّاق وهو الشاعر الثاني ردَّ عليه بأنّه لا يرى في نفسه تلك الصفات فما هو إلّا واحد من جماعة، وإن كان على سبيل التهكّم.

نقيضة المهلهل وكليب:

لمّا بدأت الفتنة تشتعل بين جساس وكليب أراد المهلهل أن ينصح أخاه ويردّه عمّا أراد، فاستشاط كليب غضبًا وقال: "إنّما انت زير النساء والله لأن قتلت ما اخذت بدمي الّا اللبن. فأنشأ المهلهل يقول (من الطويل) (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٦١):

"أخٌ وحـــــريمٌ ســـــيئ إن قطعتـــــه ... فقطـــع ســـعود هـــدمها لـــك هـــادم
وقفـــت علـــى ثنتـــين احـــداهما دم ... واخـــرى بهـــا منّـــا تحـــزّ الغلاصـــم
فمـــا انـــت الّا بـــين هـــاتين غـــائص ... وكلتاهمـــا بحـــر وذو الغـــي نـــادم
فمنقصـــــة فـــي هـــذه ومذلّـــة ... وشـــرّ شِـــمرٌّ بيـــنكم متفـــاقم
وكـــل حمـــيم او أخ ذي قرابـــة ... لـــك اليـــوم حتّـــى آخـــر الـــدّهر لائـــم
فـــأخّر فـــان الشـــرّ يحســـن آخـــرًا ... وقـــدّم فـــانّ الحـــرّ للغـــيظ كـــاظم

فأجابه كليب (من الطويل):

سأمضـي لـه قـدمًا ولـو شـاب فـي الّـذي ... أهـــمّ بـــه فيمـــا صـــنعت المقـــادم
مخافـــة قـــول ان يخـــالف فعلـــه ... وان يهـــدم العـــزّ المشـــيّد هـــادم"

ويمكن ملاحظة قصيدة المهلهل أنّها كانت في نصح أخيه وتذكيره بقرابته من جساس، وتطوّر المواجهة بينهما ليس فيه منتصر، وإن كان كليب ملكاً على ربيعة بشقيّها تغلب وبكر فإن جساس ابن عمه وأحد رعيته، وقطع الرحم أمر مشين وخطير، غير أنَّ كليبًا نقض معاني المهلهل، وإن صدرت من أخيه على سبيل النصح، بأن ردّها على البحر نفسه والقافية عينها، فهو عازم على أمر بعيد عن كظم الغيظ أو الحلم أو صلة الرحم، كما أنّه مستعد لهذا ولو كلّفه الكثير؛ فجرأة جساس ومحاولته هدم عز بناه كليب يستحق تلك الخسائر كما يرى.

والنقيضة هذه تدخل في حيّز التوجيه، إذ يراه كلا الشاعرين من وجهة نظره هو، وإن صدرت من أخوين، والأخوة تعد من أقوى الروابط الاجتماعية في عصر ما قبل الإسلام، حتى روي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):" انصر

أخاك ظالمًا أو مظلومًا" (ابن حنبل، ٢٠٠١، صفحة ج ١٩: الحديث ١١٩٤٩)، غير أنَّ وجهات النظر وتأويل الأحداث تختلف بين شخص وآخر؛ فالمهلهل يرى أنَّ أخاه ومليكه أسرف في العداء، وإنّه مما يجب عليه إبداء اللين لابن عمه حرصًا منه عليه، وكليب يرى أنَّ اللين المطلوب ما هو إلّا نوع من التسيّب والضعف، فيهدم عند ذاك عزًا ومجدًا بناه، وقد يتيح لآخر أن يتجرّأ عليه كما تجرّأ جساس، فكان لزامًا عليه نقض رأي أخيه.

نقائض المهلهل وجسّاس بن مرّة:

قال المهلهل بعد أن دفن أخيه وقام على قبره من مطولة له (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٦٣)

"أَهـــاجَ قَـــذاءَ عَينِـــيَ الإِذّكـــارُ ... هُـــدُوّاً فَالـــدُموعُ لَهـــا اِنحِـــدارُ
أَجِبنـــي يـــا كُلَيـــبُ خَـــلاكَ ذَمُّ ... لَقَـــد فُجِعَـــت بِفارِسِـــها نِـــزارُ
أَتَغـــدوا يـــا كُلَيـــبُ مَعـــي إِذا مـــا ... جَبـــانُ القَـــومِ أَنجـــاهُ الفِـــرارُ
وَلَســـتُ بِخـــالِعٍ دِرعـــي وَسَـــيفي ... إِلـــى أَن يَخلَـــعَ اللَيـــلَ النَهـــارُ
وَإِلّا أَن تَبيـــدَ سَـــراةُ بَكـــرٍ ... فَـــلا يَبقـــى لَهـــا أَبَـــداً أَثـــارُ"

فردَّ عليه جساس ينقض قوله (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٥٠)

"أَلا أَبلِـــغ مُهَلهِـــلَ مـــا لَـــدَينا ... فَأَدمُعُنـــا كَأَدمُعِـــهِ غِـــزارُ
بَكَينـــا وائِـــلَ البـــاغي عَلَينـــا ... وِشَـــرُّ العَـــيشِ مـــا فيـــهِ غِيـــارُ
وَنَحـــنُ مَـــعَ المَنايـــا كُـــلَّ يَـــومٍ ... وَلا يُنجـــي مِـــنَ المَـــوتِ الفِـــرارُ
وَكُـــلٌّ قَـــد لَقـــي مـــا قَـــد لَقينـــا ... وَكُـــلٌّ لَـــيسَ مِنـــهُ لَـــهُ اِصـــطِبارُ"

في قصيدة المهلهل بكاء حار على الفقيد وحزن جم لا يستطيع معه كبت دموعه، ومن ثمَّ انتقل الشاعر في مطوّلته إلى تهديد قبيلة القاتل (بني بكر) وأشار إلى فرار جسّاس من الديار ذعرًا وجبنًا، ثمَّ يأتي جسّاس ينقض معاني قصيدة المهلهل محاولاً قلب المعنى ونقضه، ويعترف الشاعر أنَّ المهلهل ليس الوحيد الذي يبكي كليبًا، بل يشاركه فيه الكثير ومنهم القاتل! فالخسارة كبيرة وفادحة ولا يوجد من ينكر منزلة كليب، غير أنّه بغى وتجبّر، وما سبب قتله إلّا لتطاوله على بني عمه من بني بكر، كما أنَّ جسّاسًا يذكر أنّه مع الموت أنّى حلّ، فينقض بذلك الفرار الذي ذكره المهلهل، بل إنّه يؤمن بأنَّ الفرار لا يمكن أن ينجيه من الموت، وردَّ على تهديد المهلهل ووعيده بأنَّ الجميع مستعد لما سيحصل.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ تأكيد جسّاس على بكاء كليب كما يبكيه المهلهل فيه ترسيخ لقيم أصيلة ومُثل عربية متجذرة في النفوس، فجسّاس يعرف منزلة كليب، وخسارته خسارة للجميع، غير أنَّ عدم قتله له فيه انتقاص من الكرامة والسيادة؛ فكليب جنى ما عملت يداه من تكبّر وجور وبغي.

والنقيضة استكملت أركانها المتفق عليها من الأدباء والنقّاد؛ فبحرهما واحد وهو (الوافر) وقافيتهما واحدة، وإن كان طول القصيدتين غير متكافئ فقد تكون قصيدة جساس مقتطعة وغاب معظمها إلّا أنّها قد حملت معاني المقابلة ونقضت ما أراد المهلهل إثباته.

ولعلَّ نقائض جساس لقصائد المهلهل أخذت شكلاً مميزًا عن سائر النقائض؛ فإن كانت جلُّ النقائض المعروفة سارت في غرضي الهجاء والفخر فإن هذه النقائض كان محورها الرثاء دون سواه، ومن أمثلة ما سبق ذكره قصيدة المهلهل التي وصفها لويس شيخو بأنّها من أجود مراثيه وهي قوله (من البسيط): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٦٦)

"كُلَيبُ لا خَيرَ في الدُنيا وَمَن فيها ... إِن أَنتَ خَلَّيتَها في مَن يُخَلّيها
كُلَيبُ أَيُّ فَتى عِزٍّ وَمَكرُمَةٍ ... تَحتَ السَفاسِفِ إِذ يَعلوكَ سافيها
نَعى النُعاةُ كُلَيباً لي فَقُلتُ لَهُم ... مادَت بِنا الأَرضُ أَم مادَت رَواسيها
لَيتَ السَماءَ عَلى مَن تَحتَها وَقَعَت ... وَحالَتِ الأَرضُ فَانجابَت بِمَن فيها
الحَزمُ وَالعَزمُ كانا مِن صَنيعَتِهِ ... ما كُلَّ آلائِهِ يا قَومُ أُحصيها
يارُبَّ يَومٍ يَكونُ الناسُ في رَهَجٍ ... بِهِ تَراني عَلى نَفسي مُكاويها
مُستَقدِماً غَصصاً لِلحَربِ مُقتَحِماً ... ناراً أُهَيِّجُها حيناً وَأُطفيها
لا أَصلَحَ اللَهُ مِنّا مَن يُصالِحُكُم ... ما لاحَتِ الشَمسُ في أَعلى مَجاريها"

فأجابه جساس بالقول (من البسيط): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٥٠)

"أَبلِغ مُهَلهِلَ عَن بَكرٍ مُغَلغَلَةً ... مَنَّتكَ نَفسُكَ مِن غَيٍّ أَمانيها
تَبكي كُلَيباً وَقَد شالَت نَعامَتُهُ ... حَقّاً وَتُضمِرُ أَشياءَ تُرَجّيها
فَاِصبِر لِبَكرٍ فَإِنَّ الحَربَ قَد لَقِحَت ... وَعَزِّ نَفسَكَ عَمَّن لا يُواليها
فَقَد قَتَلنا كُلَيباً لَم نُبالِ بِهِ ... بِنابِ جارٍ وَدونَ القَتلِ يَكفيها
نَحمي الذِمارَ وَنَحمي كُلَّ أَرمَلَةٍ ... حَقّاً وَنَدفَعُ عَنها مَن يُعاديها"

فيرى المهلهل في رحيل أخيه مصيبة لا يستطيع تحملها، فدياره بعده خالية ولا معنى لحياة ليس فيها أخوه، ثم يسبغ في صفاته فهو الكرم والحلم والعز ويتمنى بعد فقده أن تقع السماء على الأرض ومن عليها، فحياة كليب تعادل حياة الناس جميعهم – فيما يرى الشاعر– ويذكر بعد هذا أنّه سيستعد لمقاتلة أعدائه من بني بكر استعداد المقاتل الفارس، ولا مكان للصلح فالحرب ستستمر لا محالة. غير أنَّ جساسًا ينقض معاني المهلهل؛ فتهديد الأخير بالقتال والحرب المتواصل لا يعني شيئًا؛ فقتله كليبًا وهو رمز الكرم والعز كما أشار المهلهل بناقة جارته يهون معه ما عدا ذلك، وإن قتلوا أيّ رجل؛ فالدفاع عن الجار وتأمينه هي أرفع صفات الشرف الذي انمازوا به دون سواه لا التكبّر والتسلّط.

والقصيدتان من بحر (البسيط) والقافية واحدة والمعاني قد نُقضت عن طريق القلب؛ حيث قلب الثاني معاني الأول الذي فخر

بصفات تمثّل الشرف والعز للمقتول إلّا أنَّ الشرف الحقيقي، من وجهة نظر جسّاس، هو حماية الجار ورعايته والأخذ بحقه وإن كان بقتل المثال للعزة والأنفة عند الشاعر الأول.

نقائض الحارث بن عباد والمهلهل:

فقد كثرت النقائض بين الحارث بن عباد والمهلهل بن ربيعة؛ لتباين موقف الرجلين من (حرب البسوس)، فابن عباد اعتزل الحرب أول أمره ولمّا قُتل ابنه بجير على يد المهلهل آثر أن يأخذ ثأره وأنشد جملة من قصائد تذكر ذلك وردَّ عليه المهلهل بنقضها أو العكس، غير أنَّ مطولته الأشهر كانت (من الخفيف)، وقال فيها: (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٢٧١-٢٧٣)

"كُـــلُّ شَـــيءٍ مَصـــيرُهُ لِلـــزَوالِ غَيـــرَ رَبّـــي وَصـــالِحِ الأَعمـــالِ"

فردَّ عليه المهلهل بقصيدته (من الخفيف): (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٢٧٣- ٢٧٦)

"هَـــل عَرَفـــتَ الغَـــداةَ مِـــن أَطـــلالِ رَهـــنِ ريـــحٍ وَديمَـــةٍ مِهطـــالِ"

وقد أراد الحارث أن يصلح بين الحيين فأرسل بجيرًا ولده، غير أن المهلهل قال وهو يقتله: "بؤ بشسع نعل كليب" (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٧١)، فقال الحارث قصيدته وهو يذكر جملة من الأمور تخص القتيل والحادثة والتهيؤ للمعركة القادمة، فنقض عليه المهلهل أغلب معانيها، وعلى الرغم من أنَّ القصيدتين كانتا على بحر واحد (الخفيف) وقافية واحدة إلّا أنَّ المعاني التي وردت في قصيدة ابن عباد جاءت منقوضة في قصيدة المهلهل ويمكن ملاحظة بعض منها، فقول الحارث مثلاً:

"قَـــد تَجَنَّبـــتُ وائِـــلاً كَـــي يُفيقـــوا فَأَبَـــت تَغلِـــبٌ عَلَـــيَّ اِعتِزالـــي
وَأَشـــابوا ذُؤابَتـــي ببُجَيـــرٍ قَتَلـــوهُ ظُلمـــاً بِغَيـــرِ قِتـــالِ
قَتَلـــوهُ بِشِســـعِ نَعـــلٍ كُلَيـــبٍ إِنَّ قَتـــلَ الكَـــريمِ بِالشِســـعِ غـــالِ
يـــا بَنـــي تَغلِـــبَ خُـــذوا الحِـــذرَ إِنّـــا قَـــد شَـــرِبنا بِكَـــأسِ مَـــوتٍ زُلالِ
يـــا بَنـــي تَغلِـــبٍ قَتَلـــتُم قَتـــيلاً مـــا سَـــمِعنا بِمِثلِـــهِ فـــي الخَـــوالي"

فالحارث يرى في ولده مثالًا لا نظير له بين الشباب وقد قُتل ظلماً؛ ولذا فهو في رثائه له لا ينسى الوعيد والوعد بالثأر، غير أنَّ المهلهل يرى في قتل بجير وعدًا قطعه على نفسه بقتل سادة بني بكر أنّى كانوا وقتل بجير بشسع نعل كليب ليس غريبًا؛ فكلُّ سادات بكر -على وفق رأي المهلهل- لا يعادلون شسع نعله، فيقول:

"كَيـــفَ صَـــبري وَقَـــد قَتَلـــتُم كُلَيبـــاً وَشَـــقيتُم بِقَتلِـــهِ فـــي الخَـــوالي
فَلَعَمـــــري لَأَقـــــتُلَنَّ بِكُلَيـــــبٍ كُـــلَّ قَيـــلٍ يُسَـــمّى مِـــنَ الأَقيـــالِ
صَـــدَقَ الحـــارُ إِنَّنـــا قَـــد قَتَلنـــا بِقِبـــالِ النَعـــالِ رَهـــطَ الرِجـــالِ"

وإذ يعلن الحارث الحرب والاستعداد لها بطلب تقريب فرسه (النعامة) منه وتكراره في أكثر من بيت للإعلان عن أمر جلل لا مبرّر لأحد أن يتخلّف عنه، فيقول: "قرّبا مربط النعامة منّي" ويلحق بهذا الشطر شطرًا يبرر فيه إعلانه الحرب

على تغلب، وإصراره عليها، ويردّ المهلهل ناقضاً قول الحارث باستدعاء فرسه (المشهّر) فيقول: "قرّبا مربط المشهّر منّي"، قبال تكرار الحارث؛ كي يعلن هو الآخر الحرب. فإذا ذكر الحارث أنّه رجل أفعال لا أقوال:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لَـــيسَ قَـــولي يـــرادُ لَكِـــن فعـــالي"

ذكر المهلهل أنَّ أفعاله تؤكّد أقواله، فهو إن قال فعل:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي إِنَّ قَـــولي مُطـــابِقٌ لِفِعـــالي"

فإن ذكر الحارث ولده بجيرًا بالقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِكَـــريمٍ مُتَـــوَّجٍ بِالجَمـــالِ
قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِبُجَيـــرٍ فـــداهُ عَمّـــي وَخـــالي"

ذكر المهلهل كليبًا وجعله قبالة بجير فيقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي لِكُلَيـــبٍ فـــداهُ عَمّـــي وَخـــالي"

وحينما يذكر الحارث أنَّ حزنه على ولده قد طال وازداد طولًا إن لم يدرك ثأره وهو يأمل بيوم اللقاء، فيقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي طـــالَ لَيلـــي عَلـــى اللَيـــالي الطِـــوالِ
قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِإعتِنـــاقِ الأَبطـــالِ بِالأَبطـــالِ"

ينسب المهلهل هذا الشوق لنفسه وهو من باب التنازع في النقائض؛ إذ يحاول كلُّ شاعر أن ينسب الأمر له دون الآخر، فيقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي إِن تَلاقَـــت رِجـــالُهُم وَرِجـــالي
قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي طـــالَ لَيلـــي وَأَقصَـــرَت عُـــذّالي"

ويذكر الحارث سبب حربه فيقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ النَعامَـــةِ مِنّـــي لِبَجَيـــرٍ مُفَكِّـــكِ الأَغـــلالِ"

فيرد المهلهل عليه بذكر سبب حربه هو بالقول:

"قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي لِكُلَيْـــب الَّـــذي أَشَـــابَ قَـــذَالِي
قَرِّبـــا مَـــربَطَ المُشَـــهَّرِ مِنّـــي لِقَتيـــلٍ سَـــفَتهُ ريـــحُ الشَـــمالِ"

فالمهلهل نقض معاني ابن عباد في أبيات وأعطى المقابل لها في أبيات أخرى.

نقيضة عامر بن الطفيل والنابغة الذبياني:

لمّا أنشد عامر بن الطفيل (من الوافر) يهجو النابغة الذبياني وقومه: (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٦٥٦)

"أَلا مَـــن مُبلِـــغٌ عَنّـــي زِيـــاداً غَـــداةَ القـــاعِ إِذ أَزِفَ الضِـــرابُ
وَلَـــيسَ الجَهـــلُ عَـــن سِـــنٍّ وَلَكِـــن غَـــدَت بِنَوافِـــذِ القَـــولِ الرِكـــابُ
فَـــإِنَّ بَنـــي بَغـــيضٍ قَـــد أَتـــاهُم رَســـولُ الناصِـــحينَ فَمـــا أَجـــابوا"

أراد بنو ذبيان هجاءه فمنعهم النابغة ولجأ إلى أبيات صغّره فيها وفضّل عليه أباه وعمّه ووصفه بالجهل، فقال (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٦٥٧)

"فَـــإِن يَـــكُ عـــامِرٌ قَـــد قـــالَ جَهـــلاً فَـــإِنَّ مَظِنَّـــةَ الجَهـــلِ الشَـــبابُ
فَكُـــن كَأَبيـــكَ أَو كَـــأَبي بَـــراءٍ تُوافِقُـــكَ الحُكومَـــةُ وَالصَـــوابُ
وَلا تَـــذهَب بِحِلمِـــكَ طامِيـــاتٌ مِـــنَ الخُـــيَلاءِ لَـــيسَ لَهُـــنَّ بـــابُ
فَإِنَّـــكَ سَـــوفَ تَحلُـــمُ أَو تَنـــاهى إِذا مـــا شِـــبتَ أَو شـــابَ الغُـــرابُ
فَـــإِن تَكُـــنِ الفَـــوارِسُ يَـــومَ جِـــسّ أَصـــابوا مِـــن لِقائِـــكَ مـــا أَصـــابوا
فَمـــا إِن كـــانَ مِـــن نَسَـــبٍ بَعيـــدٍ وَلَكِـــن أَدرَكـــوكَ وَهُـــم غِضـــابُ"

لقد كان عامر بن الطفيل زعيم قومه ورئيسهم وهو شاب لم يتجاوز العشرين، وفخر على النابغة بقوّة (بني كلاب) قوم عامر، وحذّر بني ذبيان من العصيان وأشار لهم (ببني بغيض) وهم عبس وذبيان؛ ولعلم النابغة بشخصية عامر فإنّه أدرك نقاط الضعف فيه؛ ولا شيء أنكى لعامر من أن تُصغَّر إليه نفسه ويُفضَّل عليه أبوه وعمّه، كما أنَّ النابغة وصفه بالجهل، وإذا كان عامر قد فخر بشبابه وقوته وحكمته فإنَّ النابغة وصفه بشاب جاهل وإنَّ الصواب والحكمة جانبته؛ فهو ليس كأبيه أو كعمه، وإنّه، أي عامر، لم يفد منهما شيئاً ولذا فهو لا يترك الجهل حتى يشيب الغراب.

إنَّ ظاهر أبيات النابغة المدح لا الهجاء، فهو ينسب الحكمة والصواب لأبي عامر الميّت ولعمّه أبي براء المعزول من قبل عامر، وفي أدبيات الجاهلية إنّها مفخرة؛ لأنَّ الأب والعم ممن يُعتز بهما العرب وأيّ رجل هو امتداد لهما، غير أنَّ باطن الأبيات لم تكن لمدح الطفيل أو أبي براء وإنّما تنكيل بعامر وهو أفضل من السباب والفحش بالقول، وقد كشف عن ذلك قول عامر عندما بلغته أبيات النابغة، إذ قال: "ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة، جعلني القوم رئيسًا وجعلني النابغة سفيهًا جاهلًا وتهكّم بي" (القيرواني، ١٩٨١، صفحة ٢: ١٧٢).

لقد دارت نقيضة النابغة لقصيدة عامر بن الطفيل في ميدان القلب، إذ قلب النابغة معاني الفخر التي جاء بها عامر إلى مواطن سخرية وتهكّم والقصيدتان موجهتان إلى كلّ شاعر بعينه؛ فعامر بدأ قصيدته بطلب إبلاغ ما فيها إلى النابغة تحديدًا (أبلغ زيادًا) وكذا فعل النابغة بتوجيه كلامه لـ (عامر) متخذاً البحر والقافية وقلب المعنى وعلى هذا فالنقيضة متكاملة بناءً ومعنى.

نقيضة النابغة الذبياني ويزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي:

في حادثة بين الربيع بن زياد العبسي ويزيد بن عمرو بن الصعق وردت في كتاب شعراء النصرانية (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٧١٧)، انبرى النابغة الذبياني لهجاء يزيد بعد فخره بأنّه أخذ ثأره وسلب بعض النعم ومنها ما كان للنعمان بن المنذر

فقال قصيدة منها (من الوافر: (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٧١٧ – ٧١٩)

"لَعَمــرُكَ مــا خَشــيتُ عَلــى يَزيــدٍ ... مِــنَ الفَخــرِ المُضَــلَّلِ مــا أَتــاني
كَــأَنَّ التــاجَ مَعصــوباً عَلَيــهِ ... لِأَذوادٍ أُصِــبنَ بِــذي أَبــانِ
فَحَســبُكَ أَن تُهــاضَ بِمُحكَمــاتٍ ... يَمُــرُّ بِهــا الــرَويُّ عَلــى لِســاني
فَــإِن يَقــدِر عَلَيــكَ أَبــو قُبَــيسٍ ... تَمَــطَّ بِــكَ المَعيشَــةُ فــي هَــوانِ
وَتُخضَــب لِحيَــةٌ غَــدَرَت وَخانَــت ... بِــأَحمَرَ مِــن نَجيــعِ الجَــوفِ آنِ
وَكُنــتَ أَمينَــهُ لَــو لَــم تَخُنــهُ ... وَلَكِــن لا أَمانَــةَ لِلِيَمــانِ"

فردَّ عليه يزيد بن عمرو (من الوافر): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٧١٩)

"فَــإِن يَقــدِر عَلَــيَّ أَبــو قُبَــيسٍ ... تَجِــدني عِنــدَهُ حَسَــنَ المَكــانِ
تَجِــدني كُنــتُ خَيــراً مِنــكَ غَيبــاً ... وَأَمضــى بِاللِســانِ وَبِالسِــنانِ
وَأَيُّ النــاسِ أَغــدَرُ مِــن شَــآمٍ ... لَــهُ صُــرَدانِ مُنطَلِــقِ اللِســانِ
فَــإِنَّ الغَــدرَ قَــد عَلِمَــت مَعَــدٌّ ... بَنــاهُ فــي بَنــي ذُبيــانَ بــاني"

لا يخفى أنَّ القصيدتين على بحر واحد هو الوافر وقافية واحدة، وقد دارت معانيهما في الهجاء واستعمل يزيد بن عمرو وهو صاحب النقيضة أسلوب القلب فقد قلب المعنى الذي أورده النابغة؛ بأن سلبه ما ادّعاه وجاء بخلاف ما قال، فالنابغة رأى أنَّ يزيدَ فخر وتكبّر دون وجه حق، بل راح يهدده بهجاء لا قبل ليزيد بردّه عليه، كما أنَّ النابغة فخر بشاعريته ذاكرًا غلبته لشعراء عصره، وادّعى أنَّ يزيد أثار شرًا سوف يلقى جزاءه من قبل الملك إن هو ظفر به فهو، أي يزيد، غادر لا أمان له. فنقض يزيد ما قاله النابغة وأثبت مكانته المرموقة عند الملك، وأمّا من حيث الشعر فله مكانة خاصة قد يتقدّم بها على النابغة وإنّه سوف يغلبه في الهجاء لا محالة، وأمّا الغدر وكما يعلم الجميع، كما يدّعي الشاعر، فهو سمة عند بني ذبيان لا أهل اليمن.

نقيضة الحصين بن حمام المري لنفسه:

والحصين بن حمام شاعر مجيد مقدّم له نقائض مع البرج بن الحلّاس الطائي (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٧٤٣ – ٧٤٤)، وله نقيضة مميّزة اختلفت عن سائر النقائض، فقد رُوي عنه أنّه ردَّ على الحارث بن ظالم بأبيات تبرّأ فيها من النسب إلى قريش وانتمى لغطفان، فقال (من الطويل): (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٧٤٥)

"ألا لســتم منــا ولا نحــن مــنكم ... برئنــا إلــيكم مــن لــؤي بــن غالــب
غــدونا علــى نشــز الحجــاز وأنــتم ... بمعــتلج البطحــاء بــين الأخاشــب"

ثمَّ أنّه ندم على ما قال ونقض قوله السابق فانتمى لقريش، وقال (من الطويل):

"تـــدمت علـــى قـــول مضـــى كنـــت قلتـــه	**تبينـــــت فيـــــه أنـــــه قـــــول كـــــاذب**
فليـــت لســـاني كـــان نصـــفين منهمـــا	**بكـــيم ونصـــف عنـــد مجـــرى الكواكـــب**
أبونـــــا كنـــــاني بمكـــــة قبـــــره	**بمعـــــتلج البطحـــــاء بـــــين الأخاشـــــب**
لنـــا الربـــع مـــن بيـــت الحـــرام وراثـــة	**وربـــع البطـــاح عنـــد دار ابـــن حاطـــب"**

وأهمية هذه النقيضة تكمن في أنَّ الشاعر نفسه قد نقض قوله السابق، ولكي يُثبت صحة رأيه الثاني لجأ إلى النقيضة دون سواها فجاء بالبحر نفسه وهو الطويل والقافية نفسها ثم قلب المعنى، فبعد القول الأول وبراءته من النسب إلى قريش عاد في القول الثاني إلى تصحيح ما ورد عنه وإنّه ينتمي لهذه العشيرة الكريمة، وإنَّ قوله آنف الذكر إنّما قاله بسبب التنازع بين الرجلين، وزاد على هذا بأنّه يتمنى أن يكون أبكماً أو أنَّ لسانه قد شُقَّ نصفين ولم يقل هذا القول. ويتضح هنا الأثر المعنوي الكبير الذي تثبته النقيضة دون سواها، ولهذا لجأ إليها، وإلّا كان يكفيه أبياتًا يوضّح فيها موقفه، لكنّه آثر أن يأتي بنقض القول على البحر ذاته والقافية نفسها. وأمّا مفردة (الأخاشب) "يُقال لجبال مكة الأخاشب والحباحب" (البلاذري، ١٩٥٩، صفحة ٤٣)

ومن النقائض المميزة والفريدة أن تكون النقيضة بين قاتل ومقتول كما ورد في قصة لبيد بن عنبسة زوج الزهراء أخت كليب حين ضربها وقال شعرًا يفخر به على تغلب فسمعه كليب فوثب عليه وقتله وقال قصيدة ينقض فيها ما قاله لبيد (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ١٥١ – ١٥٢).

وأخيرًا: فإنَّ كلَّ ما سبق ما هو إلّا نماذج لغرض النقائض الذي ورد في الكتاب موضوع البحث على ألّا نغفل وجود نماذج أخرى لا يسع الحديث عنها لضيق المقام، ومنها:

- ما جرى بين الربيع بن زياد العبسي والنعمان بن المنذر. (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٧٩٠ –٧٩١)
- ما بين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص إبّان مقتل حجر والد امرئ القيس. (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٧/ ٥٩٦)
- ما بين المهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد، وهي أكثر من قصيدة. (شيخو، ١٩٩١، صفحة ١٧٨/ ٢٧٩)
- ما دار بين جساس والمهلهل. (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٢٥٠ – ٢٥١)
- بين جساس وكليب، وهي من الرجز. (شيخو، ١٩٩١، الصفحات ٢٤٩– ٢٥٠)
- بين الفند الزماني والمهلهل. (شيخو، ١٩٩١، صفحة ٢٤٣)

الخاتمة والنتائج:

- إن المقصود بالنقيضة القصيدة الثانية لا كلاهما؛ فالقول الثاني ينقض القول الأول؛ وعلى هذا لا يقال نقيضتان، بل نقيضة.
- حُصرت النقائض عند أغلب النقّاد والأدباء بغرضي الهجاء والفخر، ورأينا أنها لا تقتصر عليهما فقط.
- إنَّ الأصل في النقيضة المقابلة والاختلاف.
- النقائض في الأدب الجاهلي غرض كباقي الأغراض وهي فن قائم بذاته في العصر الأموي.

فهرس المصادر والمراجع:

المراجع

أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ابن منظور. (د. ت). *لسان العرب* (المجلد د. ط). بيروت، لبنان: دار صادر.

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. (١٩٨١). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده* (المجلد ٥). (تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المحرر) بيروت، لبنان: دار الجيل.

أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. (٢٠٠٣). *الشعر والشعراء* (المجلد ٢). (تحقيق أحمد محمد شاكر، المحرر) القاهرة، مصر: دار الحديث.

أحمد الشايب. (١٩٥٤). *تاريخ النقائض في الشعر العربي* (المجلد ٢). القاهرة، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

أحمد بن محمد ابن حنبل. (٢٠٠١). *مسند الإمام أحمد بن حنبل* (المجلد ١). (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، المحرر) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.

أحمد بن يحيى البلاذري. (١٩٥٩). *أنساب الأشراف* (المجلد د. ط). (تحقيق، محمد حميد الله، المحرر) القاهرة، مصر: دار المعارف.

الدكتور شاكر الفحام. (١٩٧٧). *الفرزدق* (المجلد ١). دمشق، سوريا: دار الفكر.

الدكتور عبد الرحمن محمد الوصيفي. (٢٠٠٣). *النقائض في الشعر الجاهلي* (المجلد ١). القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.

الدكتور عمر فروخ. (١٩٨١). *تاريخ الأدب العربي* (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

خير الدين الزركلي. (٢٠٠٢). *الأعلام، قاموس تراجم* (المجلد ١٥). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

د. ريام كريم حاجم. (٣٠ ٦, ٢٠٢٣). فاعلية القصيدة الجاهلية بوصفها وسيلة إعلامية- ثقافية. *مجلة لارك للفلسفة، اللسانيات، العلوم الاجتماعية*.

دريد بن الصمة القشيري. (د. ت). *ديوان دريد بن الصمة* (المجلد د. ط). القاهرة، مصر: دار المعارف.

لويس شيخو. (١٩٩١). *شعراء النصرانية قبل الإسلام* (المجلد ٤). بيروت، لبنان: دار المشرق العربي.

معمر بن المثنى التميمي أبو عبيدة. (١٩٩٨). *النقائض، نقائض جرير والفرزدق* (المجلد ١). (وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

References:

'abu alfadl jamal aldiyn bin muhamad bin makram abn manzur. (d. ta). lisan alearab (almujalad da. ta). bayrut, lubnan: dar sadir.

'abu ealii alhasan bin rashiq alqayrawani. (1981). aleumdat fi mahasin alshier wadabih wanaqdih (almujalad 5). (tahqiqi: muhamad muhi aldiyn eabd alhamidi, almuhariri) bayrut, lubnan: dar aljil.

'abu muhamad eabd allh bin muslim abn qutaybata. (2003). alshier walshueara' (almujalad 2). (tahqiq 'ahmad muhamad shakiri, almuhariru) alqahirata, masra: dar alhadithi.

'ahmad alshaaybi. (1954). tarikh alnaqayid fi alshier alearabii (almujalad 2). alqahirata, masra: maktabat alnahdat almisriati.

'ahmad bin muhamad abn hanbal. (2001). musnad al'iimam 'ahmad bin hanbal (almujalad 1). (tahqiqi: shueayb al'arnawuwt wakhrun, almuhariri) bayrut, lubnan: muasasat alrisalati.

'ahmad bin yahyaa albaladhari. (1959). 'ansab al'ashraf (almujalad da. ta). (tahqiqi, muhamad hamayd allah, almuhariru) alqahirata, masra: dar almaearifi.

alduktur shakir alfahaam. (1977). alfirzadaq (almujalad 1). dimashqa, suria: dar alfikri.

alduktur eabd alrahman muhamad alwasifi. (2003). alnaqayid fi alshier aljahilii (almujalad 1). alqahiratu, masra: maktabat aladab.

alduktur eumar farukha. (1981). tarikh al'adab alearabii (almujalad 1). bayrut, lubnanu: dar aleilm lilmalayini.

khayr aldiyn alzarkili. (2002). al'aelami, qamus tarajim (almujalad 15). bayrut, lubnan: dar aleilm lilmalayini.

da. riam karim hajim. (30 6, 2023). faeiliat alqasidat aljahiliat biwasfiha wasilat 'iielamiatun-thaqafiatun. majalat lark lilfalsafati, allisaniaati, aleulum aliajtimaeiata.

durayd bin alsimat alqushayri. (da. ta). diwan dirid bin alsima (almujalad da. ta). alqahirata, masra: dar almaearifi.

luis shikhu. (1991). shueara' alnasraniat qabl al'iislam (almujalad 4). bayrut, lubnanu: dar almashriq alearabii.

mueamar bin almuthanaa altamimii 'abu eubaydata. (1998). alnaqayidi, naqayid jarir walfirzadaq (almujalad 1). (wade hawashihi: khalil eimran almansur, almuhariri) bayrut, lubnanu: dar alkutub aleilmiati.